الإنسان العربي إذ أصبح مكشوفا أمام كل التهديدات

19-7-2004

حصيلة المشروع الأمريكي تتقاطع مع المشروع الصهيوني في استباحة حرمات ودماء وأعراض الإنسان العربي بالمجان، وتتقاطع مع النظم السلطوية العربية في نفس السياق، مما يدفع إلى التساؤل حول مصير شعار حقوق الإنسان ودعوات الديمقراطية في ظل ما يسمى بالحرب على الإرهاب!،

بقلم محمد سليمان

مواد ذات علاقة

إهانة العرب عقدة صهيونية تتأمرك

في تحليل السياسة الخارجية الأمريكية بعد أحداث 11 سبتمبر، وصل عدد من الخبراء الأمريكان إلى نتيجة جوهرية مفادها أنّ "الإرهاب الإسلامي" هو محصلة رئيسة لحالة الصراع الداخلي بين النظم السلطوية القمعية العربية وبين الشعوب التي تئن تحت ظروف التهميش الاقتصادي والإقصاء السياسي، وقد رأى خبراء كبار وفي مقدمتهم بريجنسكي وجوزيف ناي ومارتن إنديك ومعهم عدد كبير من الباحثين في مراكز الدراسات وبنوك التفكير أنّ خطأ واشنطن الرئيس في الشرق الأوسط – في الفترة السابقة – تمثّل في دعم النظم السلطوية، وهي التي تتحمل تبعات توفير المُناخ المُناسب لنمو بذور التطرف والعنف.

ويمكن القول: إن هذه الرؤية قد أصبحت غالبة على اتجاه الفكر السياسي الأمريكي بعد أحداث سبتمبر، ولم يشذ عنها إلا كتاب قليلون أمثال "دانيال بايبس". وقد تمخّض عن هذه الرؤية جوهر التحول النظري في السياسة الخارجية الأمريكية من خلال مبادرات الإصلاح السياسي في العالم العربي، كمبادرة الشراكة التي أعلنها " كولن باول"، أو من خلال مبادرة الشرق الأوسط الكبير أو الموسع أيّا كانت الصيغة، وحجر الزاوية في دعاوى ودواعي الإصلاح الأمريكية يتمثل بأنّ مكافحة "الإرهاب" تستدعي إصلاحات بنيوية على المستوى السياسي والاقتصادي والثقافي، من هنا ربطت وثيقة الأمن القومي الأمريكية بين علاقة الولايات المتحدة ومساعداتها للدول العربية وبين تحقيق هذه الدول بشكل مؤسسي للإصلاح المطلوب.

بالفعل تمخضت السياسات الأمريكية عن مؤتمرات ونقاشات ووثائق كلها تطالب بالإصلاح ومزيدا من الحرية والديمقراطية والإصلاحات الاقتصادية في العالم العربي، وبدأت النظم العربية تستشعر خطورة الأوضاع وضرورة القيام بإصلاحات ليس رغبة في إعادة الحقوق المسلوبة لشعوبها وأبرزها حقوقها الأساسية وحرياتها العامة، والتي كانت مصادرة بحجج الأمن والوحدة الوطنية ..الخ، ولكن شكلية واستهلاكية في مواجهة الضغوط الأمريكية.

إلاّ أنّ المفارقة المدهشة تمثلت في أنّ الولايات المتحدة التي قدمت إلى المنطقة رافعة لواء الحرية في حربها على "الإرهاب"، هي ذاتها التي وقعت في انتهاك أخطر وأشد لحقوق الإنسان وحرياته العامة في الدول العربية التي احتلتها أو الدول التي تخضع وتتيع لها، وقد قرأنا ورأينا تصرفات وسلوكيات بربرية لم تستطع أشد النظم العربية سلطوية القيام بها، ولم يترك القادة الأمريكان شيئا مما يخجل منه قاموس البشرية من جرائم الإنسان وفظائع البربرية إلا ومارسته ضد الإنسان العربي والمسلم، وما زالت الشهادات المخيفة تتوالى من قبل من تعرّضوا للتعذيب والإرهاب الأمريكي، أو من قبل المؤسسات والصحفيين المستقلين في الغرب، والعجيب أنّ كل هذه الفظائع لا يعتقد أنها ستؤثر على شعبية بوش بل ربما تعززها لدى الجمهور الأمريكي المخدّر سياسيا وثقافيا واجتماعيا (وربما يحتاج الوضع إلى إصلاح مماثل لحالة العالم العربي!) وإنما الذي سيؤثر هو مدى شعور الإنسان الأمريكي أن بوش استطاع تحقيق شعار الأمن الذي رفعه في حملة "الإرهاب" بعيدا عن أي اعتبار لمسالة حقوق الإنسان وحرياته!.

بعد انكشاف فظائع سجن أبو غريب قال المسئولون الأمريكان أنّ ما ارتكبوه من جرائم وويلات في السجن لا يماثل ما ارتكبه صدام حسين في فترة حكمه، ولو افترضنا جدلا صحة هذا الإدعاء، فما هي دواعي الوجود الأمريكي في العراق، إذا كانت السياسة الأمريكية ستقارن من حيث القسوة والسوء بسياسة صدام!.

إلاّ أنّ الشهادات تثبت أنّ ما ارتكبه الأمريكان قد تجاوز من حيث طبيعة الصلف والامتهان ما فعله صدام ونظامه بحق الإنسان العراقي، ولم تنته بعد قصص التعذيب الوحشي في سجون أبو غريب، بل في سجون العراق كلها، وما زلنا نسمع شهادات تقشعر لها الأبدان، أخطر وأقسى من الشهادات في التحقيقات المشهورة للصحفي الأمريكي "سيمور هيرش"، وأحيل هنا لتحقيق قام به صحفيون لحساب جريدة الحياة المعروفة (ملحق الوسط الأسبوعي) بتاريخ (19 يوليو 2004) وهو تقرير تقشعر له الأبدان وتشيب من مضمونه الرؤوس يتحدث عن شهادات حية لعراقيين خضعوا للتعذيب على أيدي الأمريكان في سجون العراق المختلفة، بعيدا عن كل مضامين معاهدات جنيف وحقوق الأسرى والمعتقلين والقانون الدولي الإنساني.

في التحقيق المذكور قصص مريبة تكشف حجم التهديد الذي ينال كل إنسان عربي دون تمييز بين من يحمل هما سياسيا وبين من تُفرضُ عليه هموم السياسة فيجد نفسه في معتقل أمريكي، يتعرض لمعاملة تترفع عنها الحضارات البربرية، وأدعوكم لتقرؤوا قصة نادية التي تروي كيف تمت عملية اغتصابها مرات عديدة، وانتهاك كرامتها بشكل وحشي قذر، الأمر الذي تتجسّد من خلاله حقيقة الدعاوى الأمريكية بعصر الحرية والديمقراطية !! كيف اغتُصبت بعدما وُضِع لها المخدر وكيف تناوب على اغتصابها بطريقة وحشية عدد كبير من الجنود والمجندات الأمريكان، وكيف تمت عملية تصويرها وهي مجردة من ملابسها وكيف كويت بالسجائر وأجبرت على رؤية الشريط المصور لعمليات الاغتصاب!، لكن ما يلفت الانتباه في رحم هذه الشهادة هو عبارة لضابطة أمريكية كانت تستمتع باغتصاب العراقية الأسيرة وتقول لها "لقد خلقتم كي نتمتع بكم"!.

قبل أن أترك شهادات السجون العراقية أحيل إلى تقرير نُشر مؤخرا في مجلة الكفاح العربي حول ملاحقة علماء العراق وقتلهم

واضطهادهم من قبل جهاز المخابرات الأمريكية وجهاز [الموساد] الإسرائيلي، فلم تُلتزم أي قواعد إنسانية ولا احترام حقوق إنسان ولا ديمقراطية في التعامل مع هؤلاء العلماء والمثقفين، وإنما أجريت عليهم حسابات المصالح الأمريكية والإسرائيلية فكان التخيير بين فقدان الكرامة والشعور بالذات من خلال العمالة والتبعية للمؤسسات الأمريكية والإسرائيلية وبين فقدان الشعور بأدنى درجات الأمان من خلال عمليات التعذيب والمطاردة والقتل والاعتقال، فلا هؤلاء العلماء باتوا يشعرون بالأمان (المتوافر على الأقل في حكم صدام) ولا نادية وغيرها من الأسيرات العراقيات (اللواتي اعتقلن بداعي الشبهة) . فضلا عن توافر الشعور بأدنى درجات حقوق الإنسان أو شبه الإنسان !! .

أشار هيرش في تحقيقاته حول انتهاكات السجون العراقية إلى ملحوظة خطيرة جدا وهي أنّ هذه الفظائع هي جزء من السياسة الأمريكية الجديدة التي أقرها الرئيس بوش - بخصوص معاملة الأسرى من أعداء الولايات المتحدة - والتي تقوم على تجاوز كل قوانين وقواعد حقوق الإنسان والسماح باستخدام كافة الوسائل لانتزاع الاعترافات من المعتقلين، وذكر أنّ هذه السياسة كانت متبعة قبل ذلك في سجون أفغانستان وجوانتنامو ضد سجناء القاعدة وطالبان.

ومن المعروف أنّ الولايات المتحدة قد أفرجت بعد سنوات وشهور من الاعتقال والتعذيب عن مجموعة كبيرة من السجناء بعدما ثبتت براءتهم من الصلة بالقاعدة ، وبعدما تعرّضوا لتعذيب وحشي ، أحد هؤلاء السجناء المفرج عنهم أدلى بشهادته لعدة صحف من بينها صحيفة السبيل الأردنية (6-12 تموز 2004 ، ع 548) : وسام عبد الرحمن ذكر في شهادته جرائم إرهابية أمريكية أخرى قائلاً أن ما حدث في سجن أبو غريب نزهة مقارنة مع التعذيب في أفغانستان وجوانتنامو، وقد أضافت شهادته لنا تأكيدات ومعلومات أخرى عن الانتهاكات الأمريكية لكل المعايير الإنسانية، كما أنها – شهادته – زادت الأدلة حول الروح العنصرية والدينية المتعصبة التي تملأ الجنود الأمريكان ضد العرب والمسلمين، فإحدى المجندات الأمريكيات وضعت الكلب على المصحف وجندي ألقى المصحف في المرحاض، بينما كانت تعرض على المعتقلين صور التعذيب لقيادات القاعدة "أبو زبيدة الفلسطيني" و"خالد الشيخ" ويهددون المعتقلين بتعذيب مشابه، ووفقا لنفس الشهادة فإن محققين عرب قد شاركوا في تحقيقات غوانتنامو!.

وسام العائد من جحيم غوانتنامو، بعد أن ثبتت براءته، وهو أحد أفراد جماعة التبليغ المسالمة، التي لا تتدخل في الشئون السياسية، والذي وُضع في أقفاص دجاج وصناديق ومكث شهورا في غرف لا يستطيع التنفس فيها ولا يرى الشمس في أفغانستان. تقودنا شهادته إلى خيوط محزنة حول وضع الإنسان العربي اليوم، فإذا كان المحققون الأمريكان قد حققوا معه في غوانتنامو، فإن محققين أمريكان آخرين قد جاءوا إلى الأردن ليتولوا التحقيق ضد سجناء [يشتبه] بانتمائهم للقاعدة في سجن "الجفر الصحراوي"، فتحولت هذه السجون الأردنية إلى معتقلات أمريكية تمتاز بالإفادة من الخبرة العربية في هذا المجال!.

وشهادته تقودنا - كذلك- إلى إيران التي سلّمته إلى الأمريكان، وسمحت لطائرة أمريكية خاصة بالهبوط في مطارها ونقل هذا المواطن الأردني إلى سجون أفغانستان ثم كوبا، وربما دور إيران يذكرنا بدور دول عربية أخرى فتحت حدودها ومطاراتها ، وسخرت قدراتها الأمنية الكبيرة ! لمساعدة الأمريكان في تتبع العرب العابرين أراضيها و[يشتبه] بانتمائهم لتنظيمات أصولية، وهذا وذاك يشير إلى مفهوم "القنوات الخلفية" بين الولايات المتحدة وبين الدول العربية حتى الموصوفة بالمارقة! والتي تقدم أبناءها للسجون والمعتقلات الأمريكية في صفقات سياسية لعلها تحسن علاقتها بأمريكا!.

حصيلة المشروع الأمريكي تتقاطع مع المشروع الصهيوني في استباحة حرمات ودماء وأعراض الإنسان العربي بالمجان، وتتقاطع مع النظم السلطوية العربية في نفس السياق، مما يدفع إلى التساؤل حول مصير شعار حقوق الإنسان ودعوات الديمقراطية في ظل ما يسمى بالحرب على الإرهاب!، الأمر الذي يصل بنا إلى ملاحظة برهان غليون أنّ النظم العربية ستعمل على إعادة إنتاج دورها ومشروعيتها من خلال مشروع الحرب على الإرهاب، والضحية المباشرة لهذه الحرب هو الإنسان العربي؛ وإذا كانت النظم التسلطية قد رفعت سابقا شعار الأمن مقابل الحرية، فإن مبادرة الشراكة الأمريكية الفعلية ترفع اليوم شعار الإرهاب مقابل الديمقراطية وحقوق الإنسان، فالمشروع الأمريكي جاء ليزيد العبء والضغوط على الإنسان العربي لا ليخلصه – زعما- من فساد نظمه التسلطية الحاكمة.

في رسالة حملت مضامين ملفتة للانتباه كتبها قبل شهور عديدة مثقفون سوريون - خاطبوا بها الرئيس السوري- أكدوا أنهم لم يعودوا يشعرون بالأمن وهم في بيوتهم .. فالإنسان العربي سواء في فلسطين أو العراق أو أي بلد بما في ذلك البلدان المارقة لم يعد يشعر بالأمن أبدا، بل أصبح مكشوفا أمام كل التهديدات ولا يسلم من ذلك عالم متميز أو داعية مسالم أو امرأة في بيتها مع زوجها أو أستاذ في مدرسة يشتبه أنه يحمل أفكارا ضد الولايات المتحدة، وإذا أرادت النظم العربية أن تثبت حسن علاقتها بالولايات المتحدة أكثر فما عليها إلا تسويق نفسها في الحرب ضد الإرهاب ولو بداعي الشبهة.

ثم يجدر أخيرا التساؤل حول النتيجة التي بدأنا بها هذا المقال بأن مكافحة الإرهاب – وفقا للرؤية الأمريكية – تكون من خلال نشر الديمقراطية ومواجهة الدكتاتوريات العربية، أين صارت هذه النتيجة بعد أن تجاوز الإرهاب الأمريكي كل هذه الديكتاتوريات وتفوق عليها!، وهل نتوقع من الإرهاب الأمريكي سوى مزيد من الإرهاب المقابل، ولكنه إرهاب الضعيف في دفاعه عن نفسه أو في التعبير عن رفضه للحالة المزرية التي وصل إليها!!.

للعودة للأعلى